الخاتمـــــــه

ليس هناك من شك فى ان القصة العربية بوجه عام والقصة اللبنانية بوجه خاص نتاج جديد لاترتبطه بأدبنا القديم الا اواصر محدودة من التأثير ولعل اهم الانتاج العربى المترجم الذى تأثر فيه هو رواية الف ليلة وليلة والقصص التى تدور حـــول المعارك التى كانت تنشب بين القبائل العربية بين حين وآخر •

وفى العصر العباسى ظهر نتاج جديد لعله اثر بعض التأثير فى الكتاب العربى ويتمثل هذا الانتاج فى كليلة ودمنه لابن المقفع ، ورسالة الغفران للجاحظ

غير أن التأثير الفعال الذى اثر فى الآداء العرب واللبنانيين خاصة هو التأثر المتصل بالقصة الغربية فى مختلف اشكالها وهذه حقيقة ملموسة ينبغى ان نوليهـــا الاهتمام الكافى اذ تواجه هذا الانتاج فى مختلف مراحله •

والحق ان الاثار الاولى للقصة اللبنانية كانت موسومه بهذا الطابع من التقليد الذى ينتجه كل فن جديد غير اصيل لهذا لم تعد هذه الآثار فى تكوينها الا تقليدا فاشلا لما امتاز به الكتاب فى تلك الفترة من ضعف فى اللغة التى يترجمون منها اولا • ولضعف قدرتهم على تصوير الواقع العربى كما هو الحال فى تصوير الكتاب الذيـــن يقتبسون عنهم لمجتمعهم وواقعهم لهذا نجد ان بعض خصائص القصة اللبنانيـــة كسائر القصص العربية الاخرى لم تكن نابعة من ذاتها . ولا من تأثير البيئة والوسـط ولعل هذا هو السبب فى ان تصويرها للتجارب الاجتماعية كان مدفوعا بعـــدم الاكتمال او بدافع الاحداث الى ابعد من الحدود التى يحتملها المنطق وكان الاطار الذى تصب فيه هذه الاحداث يقوم على حبكة عاطفية يجرى فيها الصراع بين كائنـــين متحابين •

تقف في وجه حبهما قوى خارجية يقاومانها حتى ينتصران عليها وهذا الاطار قائم ابدا في اي نوع من انواع هذا الانتاج القصصي سواء اكان اجتماعيا ام تاريخيا وسواء اكان رواية ام اقصوصه ولم يكن من النادر ان يجمع الكاتب في هذا الاطار مادة التاريخ ومادة الاجتماع كليهما فهو اذا المحور الرئيسي الذي يمكن ان تضاف اليه العناصر الاخرى .

ان تاريخ القصة اللبنانية الحقيقي يبدا مع جبران ونعيمه اي مدرسة المهجر فهذه المدرسة هي التي شقت الطريق الصحيح وخلقت فيه مختلف التيارات ، ووفرت للقصة من الفني والتنوع ما جعل لها شخصية مستقلة تمكنت بها من الوقوف بعيدة عن التقليد والاسفاف وقد ادخلت الرومانتيكية والرمزية في الادب العربي مع مايشوب النزعة الاولى في مبالغة في تمجيد العواطف الذاتيه والدعوه الصافيه الى الحب والثورة ، وما يشوب الثانية من تجريدية تجفف في عروق القصه وتنسخ الحياة والواقع المضطرب على ان هذا الانتاج قد عالج الموضوعات الرئيسية التي تناولها التأليف القصصي اللبناني في مختلف مراحله ، فهو من هذه الزاوية بدا يضفي الشخصية على هذه الاثار ، واقامة كيان خاص بها .

ولما كان اغلب انتاج المهاجرين قد ظهر في المهجر — كان من الطبيعي ان يكون الموضوع الاول الذي نجده في هذا الانتاج موضوع (الهجرة) لما بينه وبين لمدرسة المهجر ذاتها من صلات . ولهذا كان نموذج المهاجر هو الذي غادر ارضه سعيا وراء الرزق والمجد في البعيد البعيد ، بطلا مألوفا لدى كتاب هذه الفترة والحبكة التي تدور حولها حكاية المهجر هذا الصراع الذي ينبعث في نفسه حين يقارن بين وضعه في العالم الجديد ووضعه الذي كان عليه في البلد الذي هجره صراع بين حاضر يطبعه جمع المال ومواجهة المادية والعيش في وسط الآله ، وبين ماضي قد يكون الفقر والعوز والحاجة ابرز مظاهره ولكن ذلك كله مقترن بعاطفة انسانية تربط المرء بمسقط راسه وتملأ صدره بالحنين والمودة والحب .

ولا شك ان الهجره من اهم موضوعات القصة اللبنانية منذ نشأتها حتى اليوم. وهذه ميزه يكاد ينفرد بها الانتاج اللبناني سواء أكان قصة ام شعرا . وليس من الغريب ان يخلق هذا الانتقال من ارض الى ارض صراعا بين الارضين ، كان ينتهي في اول امر الهجره بانتصار الارض الام مسقط الراس. اذ غالبا ما كان المهاجر يعود ، اما مخفقا في بلوغ ما كان يصبوا اليه من الغنى والثروة والجاه او منكرا هذه الاليه المادية التي تكاد تنزع من الانسان انسانيته فيرجع الى بلده راضيا بأن يعيش في ارضه مجددا العزم على ان يجي هذه الارض. هذه الصديقة الوفيه التي يعيش في كنفها قانعا .

وقد كان من الطبيعي ان يتفرع من موضوع الهجرة موضوع الارض بالذات . وقد عولج هذا الموضوع معالجة كبيرة واسعة حتى اصبحت هي اقوى ابطال القصة اللبنانية وابرز نماذجها فهي تجسدهما من اعمق هجوم الفرد اللبناني ، ولاسيما القروي وقد شارك في تصوير هذا البطل جميع كتاب القصة على وجه التقريب فقد بدانا نجد الارض في اثار نعيمه ثم التقينا بها على نطاق اوسع مع كرم ملحم كرم ويوسف عواد وخليل تقي الدين وهارون عبود ومعيد تقي الدين — مازالت حتى الان تمثل مكانا كبيرا في الانتاج المعاصر .

وقد كان تطور فكرة الارض في اثارنا القصصيه ، يماشي تطورها في حياة المهاجرين انفسهم بينما كانت الارض في ضمير المهاجرين الاول خيالا حبيبا الى نفوسهم يجسد الحنين ويدعو الى العودة بهف شبحها قليلا في نفوس الدفعات الثانية من المهاجرين الذين قصدوا العالم الجديد في اعقاب الحرب الاولى فتمكنوا من أن يوفروا لانفسهم فيها قدما ثابته ربطتهم بالارض الجديدة بالمعيشة والمصلحة وفي بعض اقاصيص هذه الفترة تصوير المهاجرين يعودون ولكنهم يعودون وقد فقدوا صلتهم بتقاليدهم الموروثه وعادات ارضهم القديمة . فهم لن يلبثوا طويلا حتى يرجعوا الى موطنهم الجديد .

وهذا مانجده فى بعض اقاصيص عبود وكرم .. اما الهجرة فى مرحلتها الاخيرة اى المرحلة الراهنة ، فهى هجرة نهائية تطول وتطول حتى تمكن لاصحابها ان يستبدلوا بأرضهم ارضا اخرى يكتسبون مع مرور الزمن جنسيتها ويتهجرون فى بوتقة تقاليدها ولا يعودون اذا عادوا الا لزيارة الاهل والاصدقاء او لقضاء فترة من الاستجمام فى الارض التى شهدتهم منذ زمن يكدحون ويعرقون من اجلها .

من اجل هذا ضعف موضوع الهجرة وارتباطها بالارض من الانتاج القصصى الاخير ، الا ان يكون تصوير لهذه العودة الموقته وهو حتى فى هذه الحالة قليل .

ولعل اقاصيص سعيد تقى الدين فى السنوات العشر الاخيرة هى خير ما يرمز الى بعض عواقب الهجرة من الناحيتين النفسية والاجتماعية فمعظم ابطالها مهاجرين اصابوا غنى بعد فقر ، فنشأ فى نفوسهم الصراع بين الواقع المثال بين الشهرة والطهر بين الطمع والزهد ، بين الانانية والتضحية ، وقد كان الامر ينتهى بهم ابدا الى تقليب الواقع على المثال . وفى هذا تصوير حقيقى لاوضاع المهاجرين الذين يعيشون فى اوساط الآلة والمادة . فيصبحون الهين ماديين . على انهم فى هذه الاقاصيص لا يتمتعون طويلا بلذائذ طعمهم وشهوتهم وانانيتهم بل يصيبون جزاء عادلا هو فى الحق تكفير عن مظالمهم واستغفار عن تمريغ مثاليتهم بالطين والوحل . ولعل فى ذلك رمزا لتمجيد الارض الخيرة ، القنوعة المقنعة ، المحبة الحبيبة ولعل عودة المؤلف الى وطنه بعد هجرة دامت زهاء ربع قرن ، رمز ذو مغزى فى هذا العدد .

اما المجتمع اللبنانى فقد عالجت القصة كثيرا من مظاهره ، ومن اهم هذه المظاهر الطبقتان الدينية والراسمالية . وقد صور الاولى بثورة ماضيه عنيفة جبران خليل جبران وميخائيل نعيمه ، وبسخرية لاذعة عنيفة عبود وسهيل ادريس . غير انه يؤخذ على هذا الانتاج القصصى المعاصر فى لبنان انه لايعالج فى اطارها العام نقصد الطائفية فى لبنان هذه الامة التى احدثت انقساما خطيرا بين فئات الشعب اللبنانى وحاولت ان تغذى الكراهية والضغناء فى نفوس بعض اللبنانيين على بعضهم الاخر والتى نتحت

بابا حاول ا جنبى مرارا ان يدخل منه الى الوطن اللبنانى ليزيد البلاد تفسخا ويقلب الفئات بعضها على بعض. هذه الناحية كان من الواجب ان يؤخذ باهتمام كبير من تفكير الكتاب اللبنانيين وان يسددوا الضربات القوية اليها مستخدمين الاقلام والتفكير العميق والاسلوب المتزن الرزين ، بهذا كانوا يستطيعون أن يدفعوا ببلدهم اشواطا بعيدة فى طريق الانصهار العقائدى الدينى وتذويب الفوارق ، مما ينتج عنه انشاء دولة حديثة متماسكة البنيان ، بدلا من أن تكون جامدة مشدودة الى التخلف بسبب هذه الامة . التى تمنع الوطن من ان يتطور التطور الذى تقتضيه مصلحته والمصلحة العربية العامة .

اما الطبقة الاقطاعية الراسمالية ، فقد صورت فى بعض انتاج هبود وعواد تصويرا مقتضيا لا يتناسب وخطورة هذه الطبقة وتأثيرها فى المجتمع .

فالواقع ان هذه الطبقة هى التى تخلق الزعامات المزيفة وتنصب من اصحابها أنصاف آلهة يقدسون ويجلون ، فيفرضون على البلاد نوعا من التوجيه يحول دون تقدمها التقدم المنشود .

ولئن قصرت القصة اللبنانية فى تصوير هاتين الطبقتين فهى قد اسهبت فى تصوير اللون المحلى بكل ما يشمله من وصف الطبيعة التى يتجلى بها لبنان والتى قد تكون هى نفسها بطل القصة الرئيسى ، وتصوير العادات والتقاليد والعلاقات البشرية التى تطبع الحياة اللبنانية فى المدينة والقرية بطابع خاص.

وتحتل (الارض) فى هذا الانتاج ايضا رقعه واسعة ترتبط بالقرية ارتباطا يدخل اصحابها فى صراع مع المدينة فى اطار من تقديس القرية التى تقوم فيها الارض الام والتحذير من المدينة التى تغش بانوارها عيون القرويين اذ تطمس فى قلوبهم حب الارض. بل ان بعض القصاصين أمثال خليل تقى الدين ، قدر فكرة المهجر ، بانتقال ناطور من عزاله الى بيت عروسه ، فشعر بأنه غادر ارضه الى المهجر ، وظل فى خلق متصل حتى عاد الى ذلك العزال فشعر بأنه يعود الى بيته.

والحق ان القصة اللبنانية قد اصابت توفيقا كبيرا فى تصوير تلك العلاقة بين الانسان وممتلكاته التى يعدها من مقومات حياته . والتى يظل مرتبطا بها مهما عقته واجحفت بحقه ، لانها تمثل فى رأيه رمز كرامته ، وعنوان عزته . لم تكن الهجرة والارض هما اللتان استمد منهما القاصون اللبنانيون موضوعات قصصهم بل كان للحضارة وتأثيرها فى المجتمع اللبنانى دورا آخر كذلك .

لقد تأثر الكتاب اللبنانيون بما جادت به قرائح المفكرين فى العالمين الغربى والشرقى فهالهم ماوجدوا عليه اقرانهم من التقدم فى هذا المجال ، فأدركوا حينئذ واجبهم الملح فى التعويض على مافاتهم فاتجهوا الى قراءة التراث الاجنبى بشغف محللين ومنقبين ، ليكتشفوا اسراره ، فيحيكوا على منواله . ولما تمكنوا من الادب الاجنبى ، وراوا الدور الكبير الذى لعبه فى تقدم بلادهم وتخليصها من رواسب القديم ، وما كان ينطوى عليه من تقاليد جافه عقيمة كانت تقف حائلا دون تقدم بلادهم وانطلاقها .

لهذا وجدنا الكتاب العرب واللبنانيين فى طليعتهم اكثر تأثرا ، واستجابه لهذه الاراء وما توصلت اليه فانقلبوا على اوضاعهم بدورهم يصورون مشاكلها الاجتماعية كثيرة التى كانت تقف هى الاخرى حائلا دون كل جديد يحاول دفعها الى الامام وتخليصها من الافكار البالية التى تقف منها موقف الاحترام والتقديس .

وكان من الطبيعى ان يتركز التأثير الغربى فى المدن اللبنانية ، لان فيها تتركز الفئة الكبرى من المثقفين ولان أن المدينة اقرب الى التأثر والاستجابة من الريفى المحافظ . لهذا انبرى القاصون الى تناول موضوعاتهم من المشاكل الاجتماعية التى تحيط بهم فأخذوا يعملون فيها النقد والتجريح ، وكانوا فى نقدهم ومحاولة اصلاحهم للمجتمع تأثرين ساخطين مثلهم فى ذلك مثل الرواد الاوائل للمفكرين الغربيين فسخروا من عادات مجتمعهم وتهكموا عليها وانتقدوها باسلوب لاذع جرئ يحدوهم فى ذلك امل فى تحطيم الهيكل القديم واقامة هيكل جديد على

انقاضه فى غمرة هذا الصراع بين المجدديين والمحافظين — برزت المرآه كعنصر ثالث حاولت اثبات وجوده • فقد تأثرت المرآه فى بلادنا هى الأخرى بما شاهدته فى بلاد الغرب من نيل كاف لحقوق المرآه ، واستمرار فى الحصول على مكاسب جديدة تدينها رويدا رويدا من الرجل • لقد رأت هذا اما بأم اعينها عندما ذهبت للغرب تطلب العلم ، اوعن طريق مطالعاتها الكثيرة من الكتب التى تهتم بأمور المرآه •

ازاء هذا الوضع وجدت المرآه نفسها منقادة طوعا لاقتحام ميدان الصراع الدائر ، لتفوز هى الاخرى بما تستطيعة من المكاسب • وقد وجدت من المناصرين لها من رجال الفكر المتحررين دافعا قويا لها للمجاهرة فى مطالبها ، والتصلب بها دون خوف ووجل • وقد تساءلت لماذا المرآه فى بلاد الغرب نجحت فى جميع المجالات التى انهمكت بها وهى غير قادرة على ذلك فى بلاد الشرق ؟

هل المرآة الغربية ذات مقومات نيتريولوجية متفوقة على المرآة الشرقية ؟

ان العلم ينفى ذلك ، فالمرآة مرآه اينما وجدت لكن الظروف والاعداد هما اللذان يلعبان دورا كبيرا فى نجاح المرآة •

ان الرجل يرتكب خطا كبيرا عندما يقف فى وجه تقدم المرأة لانها نصف المجتمع وهو النصف الأخر • فهى لم تخلق لتربية الاطفال ، والعمل فى المطبخ فحسب ، بل عليها واجبات ازاء مجتمعها ووطنها •

نستطيع القول ان المرآة فى بلادنا قد نجحت الى حد كبير فى نيل حقوقها وغدت تضاهى المرآة الغربية وتنافسها • وبرز فى لبنان وغيره من بلاد العرب كاتبات شهيرات اتخذت من حقوق المرآة وواجبها تجاه مجتمعها معينا لا ينضب للكتابه •

والسمة البارزة للادب النسوى فى لبنان هى الثورة الدائمة على الرجل ، والعطف المستمر على المرآة • فالرجل فى رأيهن دائم التحقير للمرأة ، هاضم لحقوقها يقف ضدها موقف السيد الامر وعليها الامتثال لاوامره ، والانصياع لها ، حتى وان كان

رأى المراة فى احيان كثيرة هو الصائب ، ورأى الرجل هو المخطىء . فلماذا لا تكون المرآة حرة فى كل شىء يكون للرجل حرية فيه ؟ لماذا لا تسافر لطلب العلم لوحدها وتسكن لوحدها ، وتصادق من تشاء ، ويكون لها الحق فى انجاب الاطفال كما هو الحال بالنسبة للرجل . اليست لها شخصية نستطيع بها أن تتحكم بغرائزها مما يحول دون تدهورها الخلقى ؟ اذا كان كل ذلك فلماذا توضع المرآة دائما وابدا تحت المراقبة ، مما يضعف ثقتها بنفسها ، ويجعلها تقع فريسه للخوف والقلق ..

هذه هى بصورة عامة الخصائص الرئيسية التى تتميز بها القصة اللبنانية اجمالا . وتعبر عنها بوضوح آثار الجيل الماضى من الكتاب ، جيل ما بين الحربين ، وآثار الكتاب الشباب الذين اخذوا على عواتقهم بأن يضيفوا الى القصة اللبنانية من الالوان الادبية ما يتلائم مع روح العصر ومشكلاته ، وان لم يتمكنوا بعد بسبب من حداثة عهدهم ، ان ينتجوا أدبا قصصيا ذات سمات وميزات بارزة . فلابد من انقضاء فترة من الزمن قبل ان يتاح للتاريخ الادبى ان يسجل هذه الآثار الفنية تسجيلا يتمم خط التصوير للقصة اللبنانية .